مجلة الساورة للدراسات الإنسانية والاجتماعية
ISSN: 2477-9881 EISSN: 2676-2153
المجلد: 08 / العـدد: 01 (2022)، ص 25- 34

أدوار المرأة بتلمسان زمن مملكة بني زيان بين أشغال البيت والتألق في الميدان

Women's roles in Tlemcen in the time of the Kingdom of Bani Zayan between housework and brilliance in the field

د. قاسمي بختاوي[*1]
[1]جامعة جيلالي ليابس بسيدي بلعباس (الجزائر)، Kasmi196527@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/01/02 تاريخ النشر: 2022/06/11

ملخص:

لم يقتصر دور المرأة في العهد الزياني على القيام بأشغال البيت من طهي وتنظيف وعناية بالزوج والأبناء، بل تعداه إلى المساهمة في مختلف مجالات الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية. فقد أشارت المصادر التاريخية إلى دورها البارز في القيام بوظائف سياسية كالتفاوض وعقد الاتفاقيات كما كان الشأن مع سوط النساء أم يغمراسن بن زيان. أما في الميدان العسكري، فكانت سندا للمقاتلين بتشجيعها ومناصرتها للجيش، بل كانت لها مهام استخباراتية. ولم تتخلف عن المشاركة في الحياة الاقتصادية، حيث أتقنت عدة حرف كالنسيج والغزل، وربما شاركت الرجل في خدمة الأرض وتربية المواشي. كما كان للمرأة الزيانية حضور في المشهد الثقافي، إذ برزت بعضهن في عملية التدريس والوعظ والإرشاد.

كلمات مفتاحية: المرأة. العهد الزياني. تلمسان. الحروب. التفاوض.

Abstract:

The role of women in the Zayani era was not limited to household chores such as cooking, cleaning and caring for husband and children, but also to contribute to various fields of political, military, economic and cultural life.

Historical sources have referred to her prominent role in the exercise of political functions such as negotiating and reaching agreements, as was the case with "Saout Ennisa" mother of Yaghmorasen ben Zayan. As for the military, it supported the combatants by encouraging and supporting the army, and it even had intelligence missions. The woman of the Zayani era

* المؤلف المرسل

did not fail to participate in economic life, as she mastered several trades, such as weaving, spinning, and was probably involved in working the land and in animal husbandry.

Zayani women were also present on the cultural scene, some of them having appeared in the process of teaching, preaching and counseling.

Keywords: Women; The Zayanite era ; Tlemcen; wars; negotiation.

1. مقدمة:

شهد المغرب الإسلامي في النصف الأول من القرن السابع الهجري قيام ثلاث دول مستقلة قامت على أنقاض الموحدين، خصت إحداها المجال الجغرافي للمغرب الأوسط وعمرت ما يفوق الثلاثة قرون؛ إنها مملكة بني زيان (633 – 962هـ / 1235 – 1554م) المحصورة بين مملكتي بني حفص وبني مرين.

لقد كان لبني زيان إسهام حضاري في شتى المجالات، حفظ لنا التاريخ أسماء الكثير من رواده، منهم نساء تألقن في السياسة وأخريات في العلوم؛ بل كان لبعضهن حضور في ساحات الوغى، خاصة وأن مملكة بني عبد الواد عاشت حروبا كثيرة مع جيرانها. فما هي أهم الأدوار التي قامت بها نساء تلمسان في عهد بني زيان؟ ومن تألقن منهن في الميدان؟

2. الدور السياسي:

لا يمكن لأي كان أن ينكر الدور الذي اضطلعت به المرأة في الحياة العامة للمجتمعات عبر العصور. فبالإضافة إلى قيامها بواجباتها في البيت، أبرزت بعض نساء تلمسان في العهد الزياني حنكة سياسية، جعلتها تتبوأ مكانة مرموقة. من هؤلاء نذكر أم يغمراسن بن زيان (ابن خلدون، 1903: 110) المعروفة بسوط النساء (بشير، 2014: 126) ، التي برزت على مسرح الأحداث عندما أقدم أبو زكرياء الحفصي (الزركشي، دت: 24) على غزو تلمسان سنة 640هـ/1242م؛ الأمر الذي اضطر يغمراسن إلى مغادرة عاصمة ملكه، وهو ما أكده التنسي في قوله: "...وخرج وحرمه وماله بين يديه...وصعد إلى جبل ورنيد (الوزان، 1983: 44)" (التنسي، 2011: 117). ولم يعد السلطان الزياني إلى مملكته إلا بعد عقد معاهدة صلح مع نظيره الحفصي، تولت الوساطة فيها والدته التي أظهرت عن قدرتها على

التفاوض، مما أكسبها تقديرا واحتراما. يقول عبد الرحمن بن خلدون في شأنها: "ووفدت أمه سوط النساء للاشتراط والقبول، فأكرم وصلها، وأسنى جائزتها، وأحسن وفادتها ومنقلبها" (ابن خلدون، 2000: 108). وقد أسفر الاتفاق المتوصل إليه إلى عودة يغمراسن إلى مملكته بفضل دهاء والدته.

لم يقتصر دور المرأة الزيانية على ما قامت به سوط النساء، بل برزت نماذج أخرى تميزت بالحكمة والدهاء أيضا؛ حيث ارتأت زوجة السلطان عثمان بن يغمراسن، أن تخفي خبر وفاة زوجها أثناء الحصار المريني الطويل على تلمسان (699 - 707هـ / 1299 - 1307م)، ريثما يحضر كبار القوم ويتخذوا القرار المناسب. يقول عبد الرحمن بن خلدون عن الواقعة: "أخبرني شيخنا العلامة محمد بن إبراهيم الآبلي، وكان في صباه قهرمان دارهم (يقصد البيت الزياني) قال: هلك عثمان بن يغمراسن ... وجاء الخادم إلى قعيدة بيته زوجه بنت السلطان أبي إسحاق بن الأمير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص صاحب تونس، فخبرها الخبر فجاءت ووقعت عليه واسترجعت وخيمت على الأبواب بسدادها، ثم بعثت إلى أبيه محمد أبي زيان وموسى أبي حمو فعزتهما عن أبيهما، وأحضرا مشيخة بني عبد الواد". (ابن خلدون، 2000: 127)

إن قدرة هذه المرأة على كتمان خبر وفاة زوجها رغم الفاجعة، لدليل على قوتها وحنكتها السياسية؛ إذ استشعرت خطورة الظرف السياسي للمملكة الزيانية والمتمثل في الحصار المريني المضروب على تلمسان، وخشيت أن يزيد نبأ وفاة السلطان إلى الوضع سوءا، خاصة إذا دب الصراع في البيت الزياني حول خلافته، وقد أحسنت صنعا إذ جنبت المملكة متاعب كانت في غنى عنها، وأتاحت الفرصة لأصحاب الحل والعقد للتفكير في اتخاذ القرار الأنسب، فأجمع القوم على مبايعة الابن الأكبر أبي زيان، واستمر التصدي للمرينيين كأن عثمان لم يمت، إلى درجة أن أعرب خصمهم آنذاك يوسف بن يعقوب المريني عن تعجبه من صرامة قومه من بعده. ابن خلدون، 2000: 128) كما أظهرت نساء

البلاط الزياني وجواريه موقفا شجاعا رغم قساوة الحصار وما آلت إليه أحوالهن من سوء، حيث عبرن عن موقفهن الداعي إلى الاستمرار في المقاومة حتى النصر أو الشهادة (فيلالي، 2002، 293)، فأرسلن الخادمة "دعد" قهرمانة القصر لتبليغ رسالة إلى السلطان أبي زيان محمد بن عثمان الأول (703 – 707 هـ)، وبعد أن حيته قالت: "تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم ما لنا وللبقاء، وقد أحيط بكم وأسف عدوكم لاتهامكم، ولم يبق إلا فواق بكيئة لمصارعكم. فأريحونا من معرة السبي، وأريحوا فينا أنفسكم وقربوا إلى مهالكنا فالحياة في الذل عذاب والوجود بعدكم عدم" (ابن خلدون، 2000: 129).

هذه النماذج من نساء البلاط الزياني تبرز بما لا يدع مجالا للشك، الدور السياسي البارز الذي قامت به المرأة الزيانية في مراحل مفصلية وحاسمة من عمر هذه المملكة، التي شاء القدر أن تعيش في صراع شبه دائم مع خصمين أحاطا بها شرقا وغربا.

2. الحضور العسكري:

لم تكتف المرأة الزيانية بأدوارها السياسية بل كان لها حضور عسكري أيضا؛ إذ شاركت الجيوش في المعارك كمقاتلة أو مشجعة على القتال سواء بأصواتها أو إشاراتها وتلميحاتها، حيث عملت على تحميس الرجال والرفع من معنوياتهم ليستبسلوا في ساحات الوغى، فدورها المعنوي هذا لا يستهان به؛ فهو يدفع إلى التسابق للتضحية قصد نيل المجد والشرف. يقول صاحب فيض العباب: "في معركة وادي تلاغ (الناصري، 1954: 25) حيث واجه الجيش المريني الجيش العبد الوادي بقيادة يغمراسن الأول ... ظهرت نساء الفريقين خلف الجيوش في الهوادج مبديات زينتهن ووجوههن وعليهن ثياب رائقة وحلل مرقومة، والغاية من ذلك كله هي تقوية المعنوية وإثارة الحماس وبعث الهمم". (النميري، 1990: 115).

إن حضور النساء خلف الجيوش في الحروب هو إدراك من القادة لأهمية هذا الدور، لكن عواقبه أحيانا تكون عكس التوقعات. فإذا مني الجيش بالهزيمة تكون النساء من المكاسب

التي يظفر بها العدو، حيث تتعرضن للسبي، وهو ما حدث عقب انهزام يغمراسن بن زيان أمام المرينيين في معركة إيسلي (الحميري، 1984: 58)، سنة 670هـ. يقول ابن الأحمر في هذا الصدد: "وانتهبت مرين محلة يغمراسن وسبوا نساءهم، وكانت هذه الكائنة في منتصف رجب سنة 670". (ابن الأحمر، 1962: 49). ولا يخفى على أحد أن السبي يكون أشد وقعا على الرجال؛ إذ لا تسترجع ضحاياه إلا بشروط تكون في كثير من الأحيان قاسية ومهينة.

اضطلعت نساء بني زيان بمهام عسكرية أخرى ذات أهمية بالغة في كسب المعارك، تدخل عادة ضمن التحضير والاستعداد للقتال، تمثلت في عملية الجوسسة الهادفة إلى جمع معلومات عن العدو والإلمام بأدق تفاصيلها. وقد قامت بهذه المهمة الخطيرة نساء نجحن في مهامهن الاستخباراتية، منهن جارية أهداها أحد سلاطين بني زيان إلى نظيره المريني، أورد قصتها ابن مرزوق في مناقبه فقال: "وكان السلطان أبو سعيد عثمان الزياني قد أهدى للسلطان أبي يعقوب، رومية وسيمة، وأجرى لها رزقا يبعثه لها في كل حين، على أن تعرفه بالأخبار" (ابن مرزوق، 2008: 285). ومما يؤكد أهمية الجوسسة التي كان للمرأة الحظ الأوفر فيها خلال صراع بني زيان مع أعدائهم، ما تضمنته وصية أبي حمو موسى الثاني لابنه وهو يرشده إلى حسن التسيير والتدبير في قوله: "أن تكون لك جواسيس في بلاد العدو، يرتقبون أفعاله على البعد والدنو، وعيون تلاحظ أعماله وتشاهد أحواله، لا يفارقونه ليلا ولا نهارا، يسألون عن سر العدو سرا وجهارا، فكلما رام هذا العدو خداعا، وأظهر فيك أطماعا، جاءت الجواسيس بأخباره، وما أكنه في بلاده من أسراره" (حاجيات، 1982: 246).

3. الإسهامات الاقتصادية:

نظرا لشح المادة المصدرية وغياب الكثير من المعطيات المتعلقة بالدور الاقتصادي للمرأة في العهد الزياني، اكتفيت ببعض الإشارات الخفيفة التي وقفت عليها في ثنايا كتب التاريخ العام التي تناولت تاريخ بني زيان؛ فثمة إشارة في المسند إلى الاهتمام بالصناع منهم امرأة كانت تبيع ما صنعت أيديها، حيث قال: "وكتب للبلاد بإيصاء الأمناء على الصناع من أهل كل صناعة، حتى والله أوصى على امرأة كانت سواقة تنادي على السلع بالدور" (ابن مرزوق، 1981: 194). وقد أشار ابن قنفذ بدوره إلى أن بعض نساء تلمسان كانت تعشن من ما تجنيه من ما تصنعه أناملهن حيث قال عن المرأة المتصوفة المعروفة بالمؤمنة التلمسانية: " قوتها من غزل ونسيج يديها" (ابن قنفذ، 1965: 80). ويبدو أن السلطة المطلقة للزوج على زوجته التي خولها إياه الدين الإسلامي الحنيف، لم تثن المرأة التلمسانية عن مشاركة الرجل في الحياة العامة، فعلاوة على أشغال البيت، كانت تنشط في مجالات عدة منها الغزل والخياطة (فيلالي، 2002: 292). ويعزز مختار حساني هذا الأمر بإشارته إلى تفاخر نساء تلمسان في العهد الزياني بإتقان بناتهن لعدة حرف، وما زال الحال حتى اليوم خاصة عندما يتقدم أحد لخطبتهن فيقلن عنهن "كل أصبع بصنعة". ولعل أبرز الحرف التي كانت تتقنها نساء بني زيان صناعة الزرابي والخياطة والطرز بخيط الذهب والفضة وغزل الصوف الذي يتوقف عليه نشاط الدرازين (حساني، 2009: 90).

بهذا يتضح لنا بجلاء أن المرأة الزيانية كان لها إسهام في الميدان الاقتصادي، بل ربما كانت لها نشاطات اقتصادية أخرى غفلت عن ذكرها المصادر خاصة في البوادي كمساعدة الرجل في خدمة الأرض وتربية المواشي. فمشاركتها في المعارك وتحملها لتأثيرات الحصار المريني الذي استمر لعدة سنوات، يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أنها قادرة على القيام بكل النشاطات الاقتصادية مهما كانت مشقتها.

1. الدور الثقافي:

لم يقتصر التعليم بالمغرب الأوسط في العهد الزياني على الذكور فقط، بل كان للإناث أيضا حظ فيه، لأن الإسلام جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، إلا أن عددهن كان قليلا مقارنة بعدد الذكور. وكثيرا ما كانت الإناث تتوقفن عن الدراسة، لتتحملن أشغال البيت من تنظيف وطهي وغيرها؛ وهذا هو حال السواد الأعظم منهن. أما بنات الحكام والفقهاء والعلماء، فكان يسمح لهن بالتعلم في بيوتهن بحضور مدرسين خصوصيين (فيلالي، 2002: 355).

والملاحظ أن الفقهاء لم يعارضوا تعليم المرأة، إلا أنهم اشترطوا عدم اختلاطها مع الذكور. يقول القابسي في هذا الشأن: "من صلاحهن ومن حسن النظر لهن ألا يخلط بين الذكران والإناث" (الأهواني، دت: 158). ويردف ابن سحنون قائلا: "أكره للمعلم أن يعلم الجواري ويخلطهن مع الغلمان لأن ذلك فساد لهن" (ابن سحنون، 172: 89).

كان تعليم الإناث في الغالب لا يتعدى المرحلة الأولى التي تتم في الكتاب. ولعل من الأسباب التي حالت دون مواصلة المرأة لمشوارها التعليمي، هي الصعوبات التي كانت تواجه طلبة العلم آنذاك، كالرحلة في طلب العلم عبر حواضر البلاد الإسلامية وما يترتب عنها من مصاعب، يستعصى أحيانا على الرجل تحملها.

ونظرا لقلة فرص تعليم المرأة، لم يظهر منهن في حقل المعرفة بالمغرب الأوسط إلا نزر قليل أمثال:

- **المؤمنة التلمسانية**: هي امرأة متصوفة صالحة، هاجرت إلى فاس لطلب العلم، فقرأت القرآن علي يد الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الوهاب الذي كان يكتب لها لوحها، وجالست كبار الفقهاء أمثال أبي عبد الله المقري (ت759) وابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ). كانت على درجة كبيرة من التقشف والزهد والورع والعبادة، قوتها من غزل ونسيج يديها، تنقطع أحيانا عن مخالطة الناس خاصة في شعبان ورمضان. عرفت بتبحرها في الفقه ولبسها لجبة الصوف. توفيت بعباد تلمسان بعد عودتها من فاس ابن قنفذ، 1965: 80).

- **عائشة بنت أحمد بن الحسين المديوني:** كانت من الصالحات، ولها قوة في تعبير الرؤيا اكتسبتها من كثرة مطالعتها لكتب الفن. هي والدة الفقيه ابن مرزوق الحفيد (ت842هـ)، الذي قال عنها أنها ألفت مجموعا في أدعية اختارتها (المقري، 1988: 430 – نويهض، 1980: 289).

- **زينب بنت أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الدلايلي:** هي والدة أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق (ت681هـ)، كانت من الصالحات، ورثت العلم عن أهلها الذين كانوا من العلماء (ابن مرزوق، 2008: 149).

- **فاطمة بنت أبي زيد بن النجار:** هي زوجة أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق، عاشت مع زوجها قرابة ثمان سنوات، وكانت من الصالحات (ابن مرزوق، 2008: 168).

4. خاتمة:

لقد استطاعت المرأة في العهد الزياني أن تشارك أخاها الرجل في مختلف مجالات الحياة؛ إذ أوردت المصادر التاريخية أسماء الكثير من النساء اللواتي قمن بمهام سياسية، وأخرى عسكرية، مع الإشارة إلى مساهمتها في الحياة الاقتصادية بإتقانها للعديد من الحرف، بل وصل بها الأمر إلى القيام بمهام شاقة كانت حكرا على الرجل كخدمة الأرض وتربية المواشي. وعلى الرغم من أن التعليم لم يكن متاحا إلا لفئة قليلة من الإناث بعد مرحلة الكتاب نظرا لمشاق الرحلة العلمية، إلا أن ذلك لم يمنع من بروز بعض النساء في بعض حقول المعرفة. وليس عيبا أن تقتحم المرأة مختلف ميادين الحياة إلى جانب الرجل، ما لم يتناف ذلك مع قدراتها العقلية والجسمية، وما لم يشغلها ذلك عن وظيفتها الأساسية المتمثلة في إعداد النشء. فالأم مدرسة إن أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق.

5. قائمة المصادر والمراجع:

ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل. (1962). روضة النسرين في دولة بني مرين. تح. ع.و. بن منصور. الرباط: المطبعة الملكية.

الأهواني، أحمد فؤاد. (دت). التربية في الإسلام. مصر: دار المعارف.

بشير، عبد الرحمن. (2014، فبراير). "المرأة المغربية في نوازل أبي القاسم البرزلي". مجلة عصور الجديدة، (العدد 11 – 12)، (124 – 138).

التنسي، محمد بن عبد اللّه. (2011). نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان. تح .م . آغا. ب. الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية للنشر.

حاجيات، عبد الحميد. (1982). أبو حمو موسى الثاني (حياته وآثاره). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

حساني، مختار. (2009). تاريخ الدولة الزيانية (الأحوال الاقتصادية والثقافية). ج.2. الجزائر: منشورات الحضارة.

الحميري، أبو عبد اللّه محمد بن عبد المنعم الصنهاجي. (1984). الروض المعطار في خبر الأقطار. ط.2. تح. إ. عباس. بيروت: مكتبة لبنان.

ابن خلدون، عبد الرحمن. (2000) . تاريخ ابن خلدون. ج.7. بيروت: دار الفكر.

ابن خلدون، يحي. (1903) . بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد. الجزائر: مطبعة بيار فونتانا الشرقية.

الزركشي، أبو محمد عبد الرحمن بن إبراهيم. (دت). تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تح . م .ماضور. تونس: المكتبة العتيقة.

ابن سحنون، محمد. (1972). آداب المعلمين. ط.2. تونس: مطبعة المنار.

فيلالي، عبد العزيز. (2002). تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية). ج.1. الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

ابن قنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد الخطيب. (1965). أنس الفقير وعز الحقير. الرباط: مطبعة أكدال.

ابن مرزوق التلمساني، أبو عبد اللّه محمد. (1981). المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن. تح. م. خ. بيغيرا. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

ابن مرزوق التلمساني، أبو عبد اللّه محمد. (2008). المناقب المرزوقية. ط.1. تح. س. الزاهري. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.

المقري التلمساني، أحمد بن محمد. (1988). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. ج.5. تح. إ. عباس. بيروت: دار صادر.

الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد. (1954). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تح . ج. الناصري – م . الناصري. الدار البيضاء: دار الكتاب.

النميري، ابن الحاج. (1990). فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب. ط.1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

نويهض، عادل. (1980). معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر. ط.2. بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر.

الوزان، حسن. (1983). وصف إفريقيا. ج.2، ط.2، تر . م .حجي- م .الأخضري. بيروت: دار الغرب الإسلامي.